﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: 98]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ إتمامِ دلائلِ وُجودِهِ، باستحضارِ أحوالِ خلْقِ الإنسانِ ونشْأتِهِ

لمّا ذكرَ الحقُّ ﷻ بعضًا من آياتِهِ الدّالّةِ على عظمتِهِ في المَلَكُوت الأرضيِّ والسّماويِّ، أتبعَه بالخلْقِ الجامعِ لذلك المَلَكُوت[1]، وهو خلقُ الإنسانِ من نفسٍ واحدةٍ، وهو رابعُ دلائلِ وجودِهِ - ﷻ - مع كمالِ علمِهِ، وعظيمِ قُدرتِهِ، وهو الاستدلالُ بالإنسانِ، وأحوالِ خلقِهِ ونشأتِهِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنشَأَكُم﴾: الجذرُ اللّغويُّ (نشأ)، والإنشاءُ: البدءُ، ومنه "أنشأَ فلانٌ حديثًا؛ أي: ابتدأَ حديثًا ورفَعَه، "والأصلُ في معناه الارتفاعُ، ومنه أنشأَهُ اللّهُ بمعنى: رفَعَهُ، وهو أيضًا إحداثُ الشّيءِ وتربيتُهُ وإيجادُهُ"[3]. و"الإنشاءُ: ابتداءُ الخلْقِ، وكلُّ مَنْ ابتدأَ خلقَ شيءٍ واخترعَه فقد أنشأَهُ"، "والنّشوءُ يشمَلُ الإيجادَ والدّخولَ في مرحلةِ النّموِّ والتّكاملِ حتّى الاستواء"[4]، ومعنى ﴿أَنشَأَكُم﴾ في الآية؛ أي: الّذي ابتدأَ خلقَكُم من عدمٍ، وأوجدَكُم من غير أن تكونُوا شيئًا[5].

2) ﴿نَّفْسٍ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، جذرُهُ اللّغويُّ (نفس)، ومعنى النّفسِ: الرّوحُ الّتي يَحيَا بها الجَسَدُ[6]، والنّفسُ في أثناءِ بدنِ الحيِّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/206، ورضا، تفسير المنار: 7/532.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/107.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نشأ).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 11/562.
(6) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (نفس).

علامةُ حياتِهِ"[1]، ومعنى ذلك أنّ النّفسَ يُعبَّرُ بها عنِ الإنسانِ، وهو تعبيرٌ مَجازيٌّ وفقًا لمَا سبقَ، ومعنى النَّفسِ في الآيةِ نفسُ آدَمَ عليه السلام.[2]

3) ﴿وَٰحِدَةٍ﴾: اسمُ فاعلٍ دالٌّ على العددِ، ويكونُ صفةً لمَا قبلَهُ، وجذرُهُ اللّغويُّ (وحد) و(أحد)، ومعنى الواحدِ: المُنفَرِد من كلِّ شيءٍ، وهو أصلُهُ[3]، والواحدُ "في الحقيقةِ هو الشّيءُ الّذي لا جزءَ له البتَّةَ، ثمّ يُطلَقُ على كلِّ مَوجودٍ حتّى إنّه ما مِنْ عددٍ إلّا ويصحُّ أن يُوصَفَ بهِ"[4]، وهذه النّفسُ الواحدةُ هي آدمُ[5] عليه السلام؛ إذ لم يكنْ معه أحدٌ يومَ خلقِهِ.

4) ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾: اسمُ مَفعولٍ منَ الفعلِ (استقرَّ)، وجذرُهُ اللّغويُّ (قرر)، ومنه القرارُ وهو المُستقَرُّ منَ الأرضِ، والقارُّ بمعنى السّاكنِ المُتمكِّنِ المُستقرِّ[6]، والأصلُ في معنى هذه اللّفظةِ يدُلُّ على التَّمَكُّنِ[7]، والاستقرارُ نقيضُ التَّحوُّلِ[8]، ولفظةُ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الآية تدُلُّ على الثّباتِ والاستقرارِ، وهو القرارُ، "فالسّينُ والتّاءُ فيه للتّأكيدِ مِثلُ استجابَ، يُقال: استقرَّ في المكان؛ بمعنى: قَرَّ"[9].

5) ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: اسمُ مَفعولٍ منَ الفعلِ (وَدَعَ)، وجذرُهُ اللّغويُّ (ودع)، ومنه التّوديعُ، وهو إيداعُكَ ثوبًا في صِوَانٍ، ويكون مَحميًّا من ريحٍ ونحوه، والوديعةُ: الشّيءُ المُستودَعُ المَحفوظُ كالمالِ ونحوِه[10]، ومن معانيه التّركُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضّحى: 3]، والأصلُ في معناه التّركُ والتّخليةُ[11]، والمعنى المحوريُّ له: "بقاءُ الشّيءِ ساكنًا قارًّا في مَقرٍّ، أو مَقامٍ بلا حركةٍ ولا استعمالٍ"[12]، أمّا معنى ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فهو التّركُ مُدّةً،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفس).
(2) ابن عبّاس، تنوير المقباس، ص: 116، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/5.
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (وحد)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحد).
(4) الرّاغب، المفردات: (وحد).
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/326.
(6) الخليل، العين: (وحد)، والفيوميّ، المصباح المنير: (قرر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قر)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قرر).
(8) الرّاغب، المفردات: (قر).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/396.
(10) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (ودع).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ودع).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ودع).

ثمّ يُسترجَعُ المتروكُ كالمالِ إذا تُرِكَ، ويُسمّى الوديعةَ، فهو مُوقَّتٌ بوقتٍ، خلاف الاستقرارِ المُؤذِنِ بطولِ الوقتِ، واستطالةِ المدّةِ[1].

6) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: الفِقهُ: العلمُ في الدّينِ والفهمُ والبيانُ[2]، ومن معانيه أيضًا الفِطنةُ[3]، والأصلُ في دلالتِهِ إدراكُ الشَّيءِ، والعلمُ به؛ فكلُّ علمٍ هو فِقهٌ، وهو أيضًا التّبيينُ[4]، و"هو التَّوَصُّلُ إلى عِلمٍ غَائبٍ بعِلمٍ شَاهِدٍ، فهو أخَصُّ منَ العلمِ"[5]؛ لذلك جُعِلَ المعنى المحوريُّ له الوصولُ إلى باطنِ الشّيءِ[6]، ومعنى ﴿يَفْقَهُونَ﴾ في الآية: هو أنّهم يَعُونَ كلامَ الحقِّ ﷻ ويفهَمُونَه، ويُدركونَ معنَاه[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بعد أنْ ذكرَ الحقُّ ﷻ جملةً من نِعَمِهِ على بني البشرِ، من لَدُنْ فَلْقِ الحبِّ والنَّوَى، حتّى هدايتِهم في ظلماتِ البرِّ والبَحرِ بأن جعلَ النُّجومَ لهم آيةً، مرورًا بفَلْقِ الإصباحِ، وجعلِ اللّيلِ لهم سَكنًا وأوبَةً لهم مِن لأوائِهم ونَصَبِهِم، ذكَّرَهُم هنا بمزيدِ نعمٍ دالّةٍ على عظيمِ قُدرتِهِ ولطيفِ صَنعتِهِ، وهي إنشاؤُهُم من نفسٍ واحدةٍ على كثرتِهِم، ولهم مُستقَرٌّ في الأصلابِ، أو فوقَ الأرضِ، أو في الأرحامِ، أو تحتَ الأرضِ[8]، فهذه آياتٌ بيّناتٌ مُفصَّلاتٌ لمَن يفقهُ دقائقَ الأمورِ، ولطائفَ صُنعِ العَزيزِ الغَفُورِ.

إغْـداقُ الإنعـامِ بـالإنـشـاءِ من نـفسٍ واحـدةٍ، والـرّعـايـةِ في المُـسـتـقـرِّ والمُستودَعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/396.
(2) الخليل، العين: (فقه).
(3) ابن سيده، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (فقه).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (فقه).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (فقه).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فقه).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/306.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/255.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعَةُ الوصْلِ بواو العطْفِ، والضّميرِ المعطوفِ في ﴿وَهُوَ﴾:

الـوصْـلُ بـالـواو مَزيدُ تأكيدٍ بأنّه الصّانعُ الخَبيرُ

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ استهلَّتِ الآيةُ بالضَّميرِ المعطوفِ على ما قبلَهُ ﴿وَهُوَ﴾؛ "أي: اللّهُ الّذي أدعوكُم إلى توحيدِهِ وطاعتِهِ"[1] توكيدًا بأنّ هذه الأفعالَ لا يقومُ بها إلاّ الصّانعُ الخبيرُ؛ فهو مَن يقومُ بها لا غيرُه[2].

بلاغةُ القَصْرِ بتعريفِ رُكنَي الإسنادِ:

التّـعـريـضُ بالمُشركين لونٌ مـنَ الـتّـقـريـعِ المُهينِ

قولُهُ تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾: افتتحَ الحقُّ - ﷻ - الآيةَ بركني جملةِ الإسنادِ، وهما مَعرفتان، والجملةُ تفيدُ القَصْرَ بركنَيها مع ما تعلَّقَ بهما؛ تعريضًا بمَن أشركَ مع اللّهِ خَالقًا غيره[3]، تعالى اللّهُ عمّا يُشركونَ علوًّا كبيرًا.

دلالةُ إنشاءِ البَشرِ من نفسٍ واحدةٍ:

الإيـمـاءُ إلى لُحمةِ البشرِ، الباعثةِ لأُصُولِ التّراحُمِ بينَهُم

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ في إنشاءِ جميعِ الخلائقِ والبشرِ من نفسٍ واحدةٍ دلالةٌ بالغةٌ على عظيمِ قدرتِهِ، وغامرِ جَبَروتِهِ، ودقيقِ حِكمتِهِ[4]. وفي هذا الإنشاءِ من أصلٍ واحدٍ إيماءٌ إلى الالتحامِ البالغِ الّذي يجبُ أن يكونَ بينَ البشرِ، وأن يُثيرَ بينهُم التّراحمَ والتّآلفَ والودَّ والتّعاطفَ، ونبذَ الفرقةِ والتّناحرِ[5]؛ فالجميعُ من أصلٍ واحدٍ هو آدمُ ﷺ.

بديعُ حذْفِ المُتعلّقِ (لكم) في قولِهِ تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ

---

(1) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/5.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/206.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/395. والتّعريضُ أسلوبٌ بلاغيٌّ يأتي خلافًا للتّصريحِ، وهو: "اللّفظُ الدّالُّ على الشّيءِ من طريقِ المفهومِ، لا بالوضعِ الحقيقيّ، ولا المجازيّ". يُنظر: العلويّ، الطّراز: 1/193.

(4) المَراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/201، والآلوسّي، روح المعاني: 7/235.

(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3817، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/201.

وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، قوله ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ على إضمارِ مُتعلِّقٍ يقعُ خبرًا له[1]، تقديرُ الكلامِ (فلكم مُستقَرٌّ ومُستودَعٌ)، وفي هذا الإضمارِ قوّةٌ في اتّصالِ الكلامِ، وتعالُقِ الجُملِ؛ لأنّ الفاءَ حرفٌ رابطٌ يغلبُ على ما بعدَها الاتّصالَ بما قبلَها؛ فحَسُنَ الإضمارُ هنا، كقول العربِ: إنْ قصدتني فبارٌّ؛ أي: فأنتَ بارٌّ[2].

في الإضمارِ إحرازُ حُسنِ الاتّصالِ، في الحاضرِ والمآلِ

دلالاتُ لفظَيِ (المُستقَرّ و(المُستودَع):

دلالةُ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الآيةِ دلالةٌ ثابتةٌ مُتأتّيةٌ من معنى القرارِ، وتكونُ غِبَّ الموتِ؛ فثمَّ القرارُ إمّا شقاوةً وإمّا سعادةً، أمّا ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فحالةُ المرءِ في حياتِهِ، فهو في تقلُّبٍ بين هذا وذاك؛ لقولِهِ ﷺ: «يُصبحُ الرّجلُ مُؤمنًا ويُمسي كافرًا، أو يُمسي مُؤمنًا ويُصبحُ كافرًا»[3]، والوديعةُ مُستردَّةٌ؛ فهي على نيّةِ الزَّوالِ[4].

المُستقَرُّ بعدَ الموتِ، والمُستودَعُ قبلَهُ؛ والوديعةُ على نيّةِ الزَّوالِ

سِرّ لفظَيْ (المستقَرُّ) و(المستودَعُ) باعتبارِ الحياتَيْن: العاجلةِ والآجلةِ:

من دلالاتِ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أنّ ابنَ آدمَ مُستودَعٌ في حياتِهِ من لَدُنْ وجودِهِ في ظهرِ أبيه، ثمّ رَحِمِ أمِّه، ثمّ رحيلِهِ عن دُنياهُ إلى قبرِهِ، ثمّ حشرِهِ حتّى جنتِّهِ أو نارِهِ، وهناك مُستقرُّهُ الّذي لا يتحوَّلُ منهُ[5]. ويجوزُ أن تكونَ دلالةُ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ قرارَ الدّنيا، وأن تكونَ دلالةُ ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ حياةَ البرزخِ منَ القبرِ حتّى مَبعَثِ النّاسِ[6] عَلَى أنّهم كالمُستودَعين في القبورِ؛ لأنَّ مَصيرَهم البعثُ والنّشورُ[7]. ومعنى ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ كونُكُم فوقَ الأرضِ، ومن دلالاتِ ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ تحوّلُكُم تحتَ الأرضِ؛ أي: فلكم استِقرارٌ في الأصلابِ أو فوقَ

مُستودَعُ المرءِ حياتُهُ، ومُستقرُّهُ مآلُهُ بعدَ حِسابِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/396.
(2) الواحديّ، البسيط: 8/312.
(3) مسلم، صحيح مسلم، تح: فؤاد، الحديث رقم: (118).
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/127.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/327.
(6) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/127.
(7) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/208.

الأرضِ، واستِيداعٌ في الأرحامِ أو تحتَ الأرضِ[1]. وعلى هذا الوجهِ يكونُ الكلامُ تنبيهًا لهُم بأنّ حياةَ النّاسِ في الدّنيا يَعقُبُهَا الوَضعُ في القبورِ، وأنَّ ذلك الوَضعَ استيداعٌ مُؤقَّتٌ إلى البعثِ الّذي هو الحياةُ الأولى رَدًّا على الّذين أنكرُوا البعثَ[2]، فهلّا اتّعظتم، وعَلِمتُم أنّكم مُتحوّلونَ منَ الحياةِ الفانيةِ إلى الآخرةِ الباقيةِ.

سِرّ لفْظَيْ (المستقَرّ) و(المستودَع) بالتّعبيرِ عنِ التّأنيثِ والتّذكيرِ:

توجيهُ المعنَى للدّلالةِ على ما يُعبِّرُ عنه اللّفظُ في الأساسِ

من دلالاتِ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أنّه ما كانَ ذَكَرًا؛ فإنّ النّطفةَ إنّما تَتولَّدُ في صُلبِهِ، فإذا وُلِدَ ذَكَرًا فهو مُستقَرٌّ، وعبّرَ عنِ الأنثى بالمُستودَعِ؛ لأنّ الرّحمَ كالمُستودَعِ لتلك النّطفَةِ[3]، فهما كنايةٌ[4]، والتّعبيرُ عن كونِهم في الأصلابِ أو فوقَ الأرضِ بالاستقرارِ؛ لأنّهما مَقَرُّهُمُ الطّبيعيُّ، كما أنَّ التّعبيرَ عن كونِهم في الأرحامِ أو تحتَ الأرضِ بالاستيداعِ؛ لِما أنَّ كُلاً منهُمَا ليسَ بمَقرِّهِمُ الطّبيعيِّ[5]؛ لأنَّ زمنَ بقاءِ النُّطفةِ في الرّحِمِ أكثرُ من زمنِ بقائِها في الصُّلبِ[6].

دلالةُ صِيغةِ الاستفعالِ، والمصدرِ الميميِّ:

توكيدُ الصِّيغتَيْنِ ودلالتُهُما على المُنتهَى أَنسبُ للمَقصَدِ

في قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: الاستقرارُ هو القرارُ، فالسّينُ والتّاءُ فيه للتّأكيدِ مِثلُ: (استجابَ). يُقالُ: استقرَّ في المكانِ بِمعنى قَـرَّ[7]، وكذا الأمرُ مع الاستيداعِ.

وفي التّعبيرِ عنه بالمصدرِ الميميِّ دلالةُ الالتباسِ بذاتٍ، فضلًا عن دلالتِهِ على نهايةِ الأمرِ وغايتِهِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/165.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/396.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/109.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/101.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/165.
(6) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 558.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/396.

بلاغةُ تقديمِ (المُستقَرّ) على (المُستودَع):

اعتبارُ التّقدُّمِ الزَّمنيِّ؛ من صُلبِ الأبِ كمُودِعٍ، إلى رحِمِ الأمِّ كمُستودَعٍ

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ تقديمُ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ على ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ من بابِ القِدَمِ والأوليّةِ؛ فالنُّطفةُ تكونُ في مُستقرِّها صُلبِ الأبِ، ثمّ في رَحِمِ الأمِّ على سبيلِ الوديعةِ؛ فهو ترتيبٌ زمنيٌّ، قُدِّمَ حصولُ النُّطفةِ في الأصلابِ عَلَى حصولِها في الأرحامِ[1]. ولمّا كانَ حصولُ النُّطفةِ في الأبِ بذاته، لا من قبيلِ شخصٍ آخرَ، وفي الأمِّ من قبلِ الأبِ، وإن كان نُطفتها بالذّاتِ، اختارَ ما ذكرَهُ؛ إذ هي كانَت مُشابِهةً في الوديعةِ في الرَّحِمِ، وباعْتِبَارِ عمدةِ الجزأين، وهي ماءُ الأبِ[2].

معنى الواوِ في ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ للجمْعِ لا للتّقسِيمِ:

حالُ الإنسانِ استقرارٌ في الأرضِ، واستِيداعٌ إلى خالقِهِ

الواو في ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ للجمعِ وليسَتْ للتّقسيمِ؛ فشأنُ الإنسانِ استقرارٌ على هذه الأرضِ في حياتِهِ، ثمّ يعودُ إلى خالقِهِ كما تستردُّ الوديعةُ من صاحِبِها[3]، كقول لبيد[4]:

وما المالُ والأهلونُ إلّا وَديعَةٌ *** ولا بُدَّ يومًا أنْ تُرَدَّ الوَدائِعُ.

تنوّعُ القراءةِ القرآنيّة، باسمِ الفاعلِ واسمِ المفعولِ، في: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾:

الاستقرارُ صادرٌ منَ الرَّجُلِ كسْبًا

قرأَ ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿فَمُسْتَقِرٌّ﴾ بكسرِ القافِ، على أنّه اسمُ فاعلٍ، والمُستودَع اسم مفعولٍ؛ أي: فمنكم قارٌّ، ومنكم مُستودَعٌ؛ لأنّ الاستقرارَ منّا؛ أي: قائمٌ منّا صادرٌ منّا كسبًا بخلافِ الاستيداعِ؛ إذ لا مَدخَلَ لغيرِهِ ولو كسبًا. هذا بيانُ وجهِ كونِ الأوّلِ اسمَ فاعلٍ والثّاني اسم مَفعُول[5].

(1) النّيسابوريّ: غرائب القرآن: 3/127، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/207.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/207.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/397.
(4) النّويريّ، نهاية الأرب: 3/70.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/208.

إيثارُ صِيغةِ المضارعِ في الفعلِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

المضارعُ يدُلُّ على التّجدُّدِ والحدوثِ، بِجَريان الحُكمِ في كلِّ زمانٍ

ختمَ قولَهُ تعالى: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ بفعلِ التّفقّهِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾؛ لأنّ ما قبلَهُ يقتضي مَزيدًا منَ التّحقّقِ وتدقيقِ النَّظرِ، وإمعانِ الفكرِ، واختارَ له صيغةَ المضارعِ؛ لِمَا تبثُّه هذه الصّيغةُ من تجدّدٍ وحدوثٍ، وهو مُناسِبٌ للمعنى، فإنّ آياتِ اللّهِ تَستلزمُ تجدُّدًا منَ التّفقُّهِ والنّظرِ فيها على وجهِ الاستمرارِ والدّوامِ.

براعةُ التّعبيرِ بلفظِ (الإنشاءِ) هنا، وبلفظِ (الخلْقِ) في غيرِهِ:

موافقةُ السّياقِ اللّفظيِّ القبْليِّ والبَعْديِّ

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ جاءَ بفعلِ الإنشاءِ في هذه الآيةِ، فيما وردَ بلفظِ (الخَلْقِ) في غيرِهِ منَ المَواضِعِ؛ لأنّ الفعلَ ﴿أَنشَأَكُم﴾ هنا مُوافِقٌ للسّياقِ اللّفظيِّ قبلَهُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾ [الأنعام: 6]، وللسّياقِ اللّفظيِّ بعدَهُ[1] بقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾ [الأنعام: 141]، وما قبلَهُ أيضًا ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ [الأنعام: 133]؛ فتوافقَ الفعلُ مع ما تقدَّمَ وما تأخَّرَ.

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

التّنوُّعُ في الفاصلةِ تفنّنٌ في البلاغةِ، وإظهارٌ لخصوصِ دلالةِ كلِّ لفظٍ

ختمَ الآيةَ بقولِهِ: ﴿يَفۡقَهُونَ﴾، فيما ختمَ غيرَها بـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، فيُسألُ عن ذلك؟ والجوابُ أنّ سياقَ الآيةِ من أوّلِهِ إلى آخرِهِ فيه آياتٌ بيّناتٌ تقتضي التّفقُّهَ بحديثِهِ عن إنشاءِ الإنسانِ من نفسٍ واحدةٍ هي آدمُ ﷺ، وتنقلِّهِ من حالٍ إلى حالٍ بينَ الأصلابِ والبطونِ والأرضِ، موتٌ وحياةٌ وقبرٌ ومَحشَرٌ وثوابٌ أو عقابٌ[2]، فهذه أحوالٌ ناطقةٌ تقتضي فهمًا عميقًا، وفطنةً بالغةً، وإدراكًا راشدًا، فأبلغُ تعبيرٍ عنه هو فعلُ التّفقُّهِ؛ فبه يحصلُ الفهمُ العميقُ ببواطنِ الأمورِ، وبه حاجةٌ لمزيدِ فطنةٍ وذَكاءٍ.

(1) الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/172.

(2) الإسكافّي، درّة التّنزيل: 2/531، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/397 - 398.

وقد نقلَ السّيوطيُّ عنِ التّفتازانيِّ أنّ الفقهَ هو الفهمُ والحذاقةُ وتدقيقُ النَّظرِ، فكان أليقَ بالاستدلالِ بالأنفسِ وأطوارِ الإنسانِ وما احتوى عليه؛ لِمَا فيهِ منَ الدّقّةِ والخفاءِ المُحيِّرِ للألبابِ، بخلافِ الاستدلالِ بالآفاقِ وأجرامِها ونجومِها، ففيها الظّهورُ والجلاءُ لكون أمرِها ظاهِرًا مُشاهَدًا[1]. وفي التّفقُّهِ غوامضُ الدّقائقِ باستعمالِ الفِطنَةِ وإنعامِ النَّظرِ في لطائفِ صنعِ اللّهِ - ﷻ - في أطوارِ تَخليقِ بني آدَمَ ممّا تَحارُ في فهمِهِ الألبابُ، وهو السِّرُّ في إيثارِ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ على ﴿يَعْلَمُونَ﴾ كما وردَ في شأنِ النُّجومِ[2].

وعنِ ابنِ المُنَيّرِ أنّ الفرقَ لا يتحقّقُ، وإنّما أُريدَ أنْ يكونَ لكلِّ آيةٍ فاصلةٌ مُستقلّةٌ بالمقصودِ بعدًا عنِ التّكرارِ وتفنُّنًا بالبلاغة[3]. ومع أنّ التّفنّنَ في البلاغةِ من مقاصدِ القرآنِ، وعاداتِ البيانِ فيه، وصورتُه هنا التّفنّنُ بالتّنوّعِ في الفاصلةِ حذرًا من صورةِ التّكرارِ، بناءً على أنّ الفِقْهَ قد يُرادُ به العِلْمُ من حيثُ إنّ العُرْفَ جعلَهُ خاصًّا بعلمِ الشّريعةِ، إلّا أنّ هذا لا ينفي قَصْديَّةَ الاصطفاءِ هنا، وفاقَ خصوصِ دلالةِ كلِّ لَفْظٍ وانفرادِهِ بمعنًى لا يؤدّيه شبيهُه؛ والفِقْهُ -كما تقرّرَ- أخصُّ منَ العلمِ؛ لأنّ شدّةَ الفهمِ وتدقيقِ النّظرِ مُعتبَرٌ فيه، والعلمُ أعمُّ منه. هذا هو الأصلُ فيه ولا يضرُّهُ استعمالُ الفِقهِ في العلمِ الجليِّ بمَعونةِ القرينةِ، كقولِهِ تَعالَى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النّساء: 78]. فملاكُ الأمرِ هنا أنّ قولَه تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ إشارَةٌ إلَى آياتِ الآفاقِ، وقولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إشارَةٌ إلَى آياتِ الأنفسِ، ولا شكّ أنّ الآياتِ الآفاقيّةَ بوصفِها سَبَبَ الاهتداءِ أظهرُ وأجلى، وإن كان بعضُ أمورِها دقيقًا غامضًا، وآياتُ الأنفسِ أدقُّ وأخفى، فكان ذِكْرُ الفِقهِ لها أنسبَ وأولى؛ من حيث إطلاقُهُ على ما يُتوصَّلُ إلَيه بدقيقِ نَظَرٍ[4].

لفظُ (الفقهِ) أبْينُ في الدّلالةِ من لفظِ (العلمِ):

خصَّصَ هذه الآيةَ بالفِقهِ، والّتي قبلَها بالعلمِ؛ لأنّه لمّا كانَ المقصودُ التّعريضَ بمَن

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/374، والصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 558.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/166.
(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/374.
(4) القونويّ، وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/209.

التّعبيرُ بالفقهِ دونَ العلمِ، تعريضٌ بمَنْ لا يَتدبّرُ آياتِ اللهِ

لا يتدبَّرُ آياتِ اللّه، ولا يعتبرُ بمخلوقاتِهِ، فنُفِيَ العلمُ عن أحدِ الفريقين، ونُفِيَ الفقهُ عنِ الآخر، يعني: بطريق التّعريضِ تخصيصُ العلمِ بالآياتِ المُفصَّلَةِ، والتّفقُّهُ فيها بقومٍ، فأشعرَ أنّ قومًا غيرَهُم لا علمَ عندَهُم ولا فِقْهَ[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾:

إظهارُ مِنَنِ الخالقِ دليلُ عَظمتِهِ

التفتَ منَ الغيبةِ إلى التَّكلُّم في قولِهِ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؛ إظهارًا لكمالِ العنايةِ بشأنِ ما أُنزلَ الماءُ لأجلِه، وإظهارًا أيضًا لعظمِ آثارِ قُدرتِهِ بعظمةِ مُوجِدِهِ وقادرِهِ[2].

وجهُ التّقريرِ في جُملةِ الفاصلةِ:

في التّقريرِ تذكيرٌ وإعذارٌ

وقولُهُ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ تقريرٌ لنظيرِهِ المُتقدِّمِ، مقصودٌ به التَّذكيرُ والإعذارُ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أنْشَأ) و(خَلَقَ):

الإنشاءُ يقتضي التّدرّجَ والتّكوُّنَ، حالاً بعدَ حالٍ، والخَلقُ إيجادٌ وتقديرٌ

الخَلْقُ فعلٌ يُستعمَلُ في إبداعِ المخلوقاتِ من غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سَابقٍ، وهو من صفاتِ الحقِّ ﷻ، وفيه معنى التّقدير[4]، أمّا الإنشاءُ فهو "الإحداثُ حالاً بعدَ حالٍ من غيرِ احتذاءٍ على مثالٍ، ومنه يُقالُ: نَشَأَ الغلامُ، وهو ناشِئٌ إذا نَمَا، وزادَ شيئًا فشيئًا"[5]، وقد عبّر هنا بفعلِ الإنشاءِ ﴿أَنشَأَكُم﴾؛ لأنّ هذا الفعلَ يفيدُ الخَلقَ لا على ابتداءٍ، ولكنْ على جهةِ النّماءِ والنُّشوءِ والتّكوُّنِ، فهو خَلقٌ مع زيادةٍ في النُّموِّ والنُّشوءِ شيئًا فشيئًا، وإيجادُه وإحداثُه بالتّدريج[6]، فالآيةُ تجري في

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/443 - 444.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/210.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/397.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/108، ورضا، تفسير المنار: 7/532.

تصويرِ خلقِ الإنسانِ منذ كينونتِهِ نطفةً، ثمّ تنقّله حالاً بعد حالٍ، من عدمٍ إلى وجودٍ، ومن مكانٍ إلى مكانٍ، من صُلبٍ إلى رَحِمٍ، ومن حياةٍ إلى موتٍ، ثمّ مَحشَرٍ[1] حتّى يومِ الحسابِ، ومصيرُهُ إلى الجنّةِ أو النّارِ؛ فاللّائقُ لهذه الأطوارِ الجمّةِ أنْ يُعبّرَ بفعلِ الإنشاءِ لا فعلِ الخَلْقِ؛ ليحصلَ التّلاؤمُ والتّناسبُ بينَ اللّفظِ والمعنى.

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/531.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»